مجلة الآداب و الحضارة الإسلامية ISSN: 1112-4628, EISSN: 2588-2449
مجلد : 21 عدد 2 السنة :2022

بنية المكان ودلالتها في الحديث النبوي الشريف

The structure of place and its significance in the noble Prophet's hadith

الملتقى الدولي

الحديث النبوي الشريف وآليات تحليل الخطاب

11و12 شعبان1443هـ الموافق: 14و15مارس 2022م

د. نوال بومعزة

جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي

تاريخ الاستلام: ../../2022 تاريخ القبول: ../../2022. تاريخ النشر: 28/07/ 2022

الملخص:

تروم هذه الدراسة التطبيقية ملامسة البنية المكانية في الحديث النبوي الشريف من منظور المنهجين البنيوي والسيميائي، من خلال إسقاط مفاهيمهما على نماذج مختارة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم مأخوذة من كتاب: الأربعون المكيّة للدكتور طلال بن محمد أبي النور.

يتميّز كتاب الأربعين المكيّة ببروز مكة كبنيّة مكانية هيمنت على متن الحديث النبوي الشريف، حيث وصف الرسول صلى الله عليه وسلم تفاصيل دقيقة للبيت الحرام وما جاوره من ربوع مكّة، الأمر الذي يستدعي بناء تصوّرات حول الغايات والدلالات من وراء ذلك الوصف الدقيق الذي حوّل البنية السردية إلى مجال خصب لتطبيق آليات المناهج النقدية المعاصرة، وخاصة ما يتعلّق بمنجزات السرديات الحديثة، إذن ومن خلال هذا السياق يمكن صوغ الإشكالات الآتية: ماهي خصائص البنية المكانية في الحديث الشريف من خلال النماذج المختارة؟ وما هي أبرز الدلالات التي تحملها ؟ ما مدى فاعلية آليات المناهج النقدية في

تفجير دلالات الحديث النبوي الشريف؟ هل يمكن عدّ الحديث النبوي الشريف نصا يحمل أكثر من خطاب؟

الكلمات المفتاحية: الحديث النبوي الشريف، مكّة، المدينة.، البنية المكانية ، الدلالة.

Abstract:

This applied study aims to touch the spatial structure in the hadith from the perspective of the structural and semiotic approaches, by projecting their concepts on selected models of the hadiths of the Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him) taken from the book: The Forty Meccan by Dr. Talal bin Muhammad Abu al-Nur. The book of forty Meccan features the emergence of Mecca as a spatial structure that dominated the board of the Hadith, where the Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him) described the details of the sacred house and the neighboring parts of Mecca, which requires building perceptions about the ends and connotations behind that precise description that turned the narrative structure: What are the characteristics of the spatial structure in the Hadith through the selected models And what are the most important signs they carry How effective are the mechanisms of critical approaches in blowing up the semantics of the Hadith Can the Hadith be counted as a text with more than one speech?

Keywords: Hadith, Mecca, Medina., Spatial structure, connotation.

تمهيد:

اهتمت الدراسات النقدية المعاصرة بمفهوم المكان، كبنية أساسية في تحليل الأعمال الأدبية، فهو مفتاح من مفاتيح إستراتيجية القراءة بالنسبة إلى الخطاب النقدي، ويشكّل محورا من المحاور الرئيسية التي تدور

حولها نظرية الأدب، فالمكان ليس " عاملا طارئا في حياة الكائن الإنساني، وإنّما معطى سيميوطيقي. والمكان يتغلغل عميقا في الكائن الإنساني، حافزا مسارات وأخاديد غائرة في مستويات الذات المختلفة، ليصبح جزءا صميميا منها، فالمكان هو الفسحة التي يحتضن عمليات التفاعل بين الأنا والعالم."[1] ولعّل قدسية المكان وارتباطه بالإنسان هي التي حدّدت أهميته في أي عمل إبداعي ،" فالمكان يعني بدء تدوين التاريخ الإنساني، ويعني الارتباط الجذري بفعل الكينونة لأداء الطقوس اليومية للعيش، للوجود، لفهم الحقائق الصغيرة ، لبناء الروح، للتراكيب المعقدّة والخفيّة، لصياغة المشروع الإنسانية ضمن الأفعال المبهمة."[2] هذا وقد حدّد النقاد والفلاسفة القدامى مفهوم المكان وعلاقته بالإنسان فأرسطو يرى: " موجود مادمنا نشغله ونتحيّز فيه، وكذلك يمكن إدراكه عن طريق الحركة التي أبرزها حركة النقلة من مكان إلى آخر ، والمكان لا يفسد بفساد الأجسام."[3] وقد خاض الفلاسفة المسلمون الحديث في هذا الموضوع ، منهم الفارابي فعرّف المكان بأنّه " موجود وبيّن ، ولا يمكن أن يوجد جسم من دون مكان خاص به."[4] أما نقاد ومفكرو العصر الحديث فبحثوا في موضوع المكان، حيث حدّد غاستون باشلار تصوّره للمكان في قوله :" إنّ المكان الذي ينجذب نحوه الخيال لايمكن أن تبقى مكانا لا مباليا ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل كل ما في الخيال من تميّز ، إننا ننجذب لأنه يكثف الوجود في حدود تتسم بالجمالية في كامل الصور لتكون العلاقات المتبادلة بين الخارج والألفة متوازية."[5] يقترت مفهوم المكان عند الناقد الفرنسي جيرار جينيت بتحديدات القارئ لها " إذ يتمكن القارئ دائما من ارتياد أماكن مجهولة متوّهما بأنّه قادر أن يسكنها ويستقر فيها إذا شاء."[6]

1ـ مكة في أشهر الكتب والدراسات.

شكّلت مكّة ولا تزال مصدر إلهام للعديد من المفكرين والأدباء والباحثين والمهتمين من داخل الوطن العربي وخارجه قديما وحديثا، فكان موطن الاهتمام بذكر تفاصيلها ومكوناتها كبنية مكانية مقدسة تحتل

[1]. خالد حسين حسين، شعرية المكان في الرواية الجديدة، مؤسسة اليمامة، الرياض،ط1، 2000، ص60.
[2]. ياسين النصير، إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، ط1، 1986، ص395.
[3]. عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج1، ط1، 1984، ص169.
[4]. حسن مجيد العبيدي، نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد،ط1، 1987،ص27.
[5]. غاستون باشلار، جماليات المكان، ت: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية لدار النش والتوزيع، بيروت، ط3، 1987، ص31.
[6]. حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1991،1، ص65.

مكانة عظيمة في نفوس المسلمين، ومصدر اهتمام وفضول لغيرهم من تلك الدراسات الثمينة.

أ- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين الإمام تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي [7] (775- 775) . وقد ورد في مقدمة الكتاب . " وجعلت في أول هذا الكتاب مقدمة فيها : ذكر مكة المشرفة ، وحكمها في البيع والإجارة ، وأسماؤها وحرمها. وشيء من الأحاديث الدالة على حرمة ذلك . وشيء من المسائل المختصة بذلك وشيء من الأحاديث الدالة على أفضلية مكّة على غيرها من البلاد ، وحكم المجاورة بها، والموت فيها، وفضل أهلها. وشيء من أخبار الكعبة المعظمة، وفضائلها، وفضائل الحجر الأسود والركن اليماني وفضائل الأعمال المتعلقة بها. كالطواف بها، والنظر إليها، والحج والعمرة ، وغير ذلك .."[8]

ب ـ مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول للدكتور أحمد إبراهيم الشريف، وقد ذكر في مقدمة الكتاب: ".. فالذين كتبوا السيرة النبوية قديما لم يهتموا إلا بذكر ماله علاقة بالنبي نفسه : منن نسب وأسرة وقبيلة ، وولادة وكفالة ، وأسفار وزواج قبل البعثة. وقلما تطرقوا إلى ذكر شيء مما كان عليه عصره وبيئته من حالات اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية ، يستطيع المرء أن يقف منها على صورة وافية لما كانت عليه الحياة في عصر النبي ، وما كانت بذاتها مركز النواة من النهضة العربية التي أخذت تباشيرها تظهر في أواخر العصر الجاهلي . تم توجها ظهور في الإسلام . ومدينة يثرب التي هاجر إليها ، وأقام فيها دولة وحدت العرب وقادت نهضتهم الكبرى. والتي كانت بذاتها مستعدة لتلقي هذا الحدث الخطير ثم النهوض بذلك العبء الجليل. " [9]

ج- فضائل مكة الواردة في السنة جمعا ودراسة ، تأليف الدكتور محمد بن عبد الله بن عايض بن عوض الغبان.

ورد في مقدمة الكتاب :"... ومن الأمكنة التي فازت بالحظ الأوفر من الفضل والعظمة مكة أم القرى، منبع الوحي، ومهد الرسالة ، التي لا يجهل فضلها ومكانتها احد من المسلمين، نوه بها في القران الكريم في

[7] تقي الدين محمد بن احمد الحسني الفاسي المكي ، العقد الثمين ، تحقيق محمد حامد الفيقي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان، ط ح ، 1986.

[8] م ن، ص 7.

[9] أحمد ابراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، دار الفكر العربي ، االقاهرة ، مصر ، 1985.

مواطن عدة ، وعظم الله شعائرها وحرماتها، وزخرت السنة بفضائلها ، وببيان مكانتها"[10]

د- التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم لمحمد طاهر الكردي المكي. وقد ورد في المقدمة." وقد سعى كثير من علماء المسلمين إلى التأليف في تاريخ البلد الأمين، وممّن ألّف في تاريخ مكة المكرمة الشيخ محمد طاهر الكردي المكي – رحمه الله – الذي ألف كتابا أسماه :" التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، وقد ضمنه مباحث ومسائل شتى ومواضيع مهمة وتراجم لأهم الشخصيات والعلماء بمكة مؤيدا ذلك بصور فوتوغرافية ورسومات ولوحات من خطة، حيث كان – رحمه الله – خطاطا.

وقد يسّر الله لي إعادة طبع هذا الكتاب محبة وإجلالا لمكة المكرمة وذلك بعد نفاذ طبعته الأولى التي طبعت عام 1385 هـ "[11]

2ـ في رحاب كتاب : الأربعون المكية [12]

يندرج كتاب الأربعون المكية لمؤلفه فضيلة الشيخ طلال بن محمد أبو النور في إطار مشروع تعظم البلد الحرام الذي تكفلت به جمعية مراكز الإحياء بمكة المكرمة ، حيث : " يتطلّع مشروع تعظيم البلد الحرام إلى تأصيل معنى تعظيم مكة ، البلد الحرام في قلوب المقيمين بها والوافدين إليها وقلوب عموم المسلمين لتبقى بلدا آمنا ، والإسهام في بناء المجتمع المعرفي المكي العارف بالقيمة الكبرى لتعظيم البلد ليكون أنموذجا ناجحا ورائدا للاقتداء في الحفاظ على الأرواح والأموال والأعراض وفي البناء الحضاري ويعمل مشروع التعظيم وفق منهجية تدريجية وبنائية أساسها ومنطلقها التعظيم قيمة دينية ومعرفية وحضارية ، ويستلهم من رؤية 2030 ، ويرنو إلى الارتقاء بنمط الحياة في البلد الحرام ليكون النموذج الأرقى في حياة الناس ، وهو يستفيد من منجزات العصر في وسائله وأساليبه وشركائه. " [13]

ويعد كتاب الأربعون المكية منجزا من منجزات هذا المشروع الهام ، وهو كتاب جمع من خلال الشيخ طلال بن محمد أبو النور أربعون حديثا نبويا صحيحا للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في فضل مكة

---

[10] محمد بن عبد الله بن عايض بن عوض الغبان، فضائل مكة الواردة في السنة جمعا ودراسة ، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ، المملكة السعودية ، ج1 ، ط1 ، 1421.

[11] م ، ن ، المقدمة .

[12] طلال بن محمد أبو النور ، الأربعون المكية ، أربعون حديثا في فضائل وأحكام البلد الأمين ، جمعية مراكز الأحياء بمكة المكرمة ، مكة المكرمة ، ط5 ، 1430.

[13] جمعية مراكز الاحياء ، مشروع تعظيم البلد الحرام ، من الموقع الالكتروني : http://makkah.org.sa

وتعظيم شأنها . ولو ألقينا نظرة شكلية للكتاب لوجدناه يتكوّن من :

أ- رسالة خطية من فضيلة الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد عضو هيئة كبار العلماء السعودية

ورد في الرسالة :" بسم الله الرحمان الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وبعد فقد سعدت وتشرفت بهذه الدعوة الكريمة من القائمين على مشروع تعظيم البلد الحرام وعلى رأسهم أخي وزميلي فضيلة الشيخ طلال أبو النور و سرني ما رأيته وما استمعت إليه من عرض عن هذا المشروع العظيم في فكرته وهدفه وتنفيذه ، وأحسب أن الله سبحانه هدى القائمين عليه إلى التي هي أقوم من اجل تعظيم بلد الله وتذكير أهل حرمه بمسؤولياتهم وفقه الله بهذا الحوار الكريم وأنني إذا أسجل إعجابي وتقديري اسأل الله لهم المزيد من التوفيق والانجاز وصلى الله عليه وسلم على نبينا محمد وآله وأصحابه أجمعين الاثنين 1428/9/19 صالح بن عبد الله حميد / مكة المكرمة ."[14]

يصبّ مضمون الرسالة في الهدف الذي من خلاله قام مشروع تعظيم البيت الحرام، وهو مكان مقدس في نفوس المسلمين لقوله تعالى " والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين " حيث يقسم الله تعالى ببعض الأشياء المخلوقة القيمة ، وممن ضمنها هذا البلد الأمين ، والمراد به مكة المكرمة شرفها الله تعالى وأدام أمنها وأمانها وخيرها ورخائها أمين ، لما فيها من بيت الله الحرام ، ومن الآيات البينات والمشاعر العظام."[15]

ب- المقدمة :

وقد رقمها المشرف التنفيذي لمشروع تعظيم البلد الحرام الدكتور طلال بن محمد أبو النور ورد فيها :" بسم الله الرحمان الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن يفاضل بين الأمم والأجناس وبين الأزمنة والأمكنة ، ورتب على ذلك سننا وأحكاما . ومن الأمكنة التي فازت بالحظ الأوفر من الفضل والعظمة : أم القرى " مكة المكرمة

[14] طلال بن محمد أبو النور ، الأربعون المكية ، غلاف الكتاب .

[15] محمد طاهر الكردي المكي ، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ، ص 42.

" ففيها أول بيت وضع للناس لعباءة الله سبحانه، وهي قبلة المسلمين أحياءا وأمواتا ، أنها منبع الوحي ، ومهد الرسالة ، ولا يجهل فضل مكانتها احد من المسلمين . وقد جاءت آيات الذكر الكريم ، وسنة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم تشير الى مزاياها ، وتعدد فضائلها ..."[16]

ج- متن الكتاب : حوى الكتاب أربعون حديثا من الأحاديث الصحيحة للرسول صلى الله عليه وسلم في فضل مكة المكرمة وفي هذا السياق يذكر صاحب كتاب " التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم : إن " التاريخ هو ترجمان العصور ، ولسان الدهور ، فالأمة التي لا تاريخ لها لا قيمة لها ، ولا شك أن خير أجناس الأمم العرب ، وأفضل العرب عرب الحجاز ، وأفضل الحجاز الحرمين الشريفين ، لأن فيهما وفي أطرافهما قريش ، فليس على زجه الأرض بلدة مستقلة بدين واحد، إلاّ مكة والمدينة ، فمنهما انتشر الإسلام واليهما بأرز الإيمان ، فمكة محل ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم والمدينة موضع مثواه ، وهما يمتازان على جميع البلدان والأقطار ..."[17]

ولعّل خصوصية تشكيل المكان ، والاهتمام بمكة كمكان يظهر جليا في كتاب " الأربعين المكية ،" ولكي يتجلى هذا الحكم بصفة تحليلية، سنقوم باستخراج البنيات المكانية لبعض من الأحاديث النبوية الشريفة من خلال الكتاب موضع الدراسة.

الحديث الأول : عن أبي ذر رضي الله عنه قال : **قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول ؟ قال :" المسجد الحرام ، قال : قلت : ثم أيُّ؟ قال : المسجد الأقصى " قلت : كم كان بينهما ؟ فإن الفضل فيه " متفق عليه واللفظ للبخاري .**

ينفتح الحديث النبوي الشريف على فضاء الحوار الذي يسمح للقارئ باستنتاج البنية المكانية الأولى المكونة لمكة المكرمة ، وهي البيت الحرام كحيز جغرافي له الخصوصية ويحمل أبعادا دينية وروحية وثقافية تستمد خصوصيتها من قوله تعالى : (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ) [آل عمران:96 يتحوّل البيت الحرام من خلال الآية الكريمة والحديث النبوي الشريف السابق الذكر من مجرد حيّز جغرافي ضيّق إلى فضاء للعبادة وأداء النسك، يطوفون به ، ويصلون إليه ، ويعتكفون عنده. ولعّل هذه الوظائف هي التي حققت الخصوصية لهذا الحيز الجغرافي . وبالتالي فالمباركة والهدى هو ما يميز البيت الحرام عن سائر البيوت الأخرى التي وجدت على سطح المعمورة ، وقد اعتمد الرسول صلى الله عليه وسلم ترتيب

[16] طلال بن محمد أبو النور ، الأربعون المكية ، ص 6.

[17] محمد طاهر الكردي المكي ، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ، ص 43.

البنيات المكانية في حديثه الشريف:

ـ المسجد الحرام.

ـ المسجد الأقصى.

ولم يكتف عليه الصلاة والسلام بذكر التراتبية في الفصل والأهمية ، بل ربط بينهما بذكر مرحلة زمنية وهي الأربعون سنة الفاصلة بين ظهور المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، وهو بذلك يؤكد الأسبقية في الظهور التي كانت للمسجد الحرام الذي ارتبط ولا يزال مرتبط بالصلاة كأول قبلة للمسلمين ، فيتحول الحديث النبوي الشريف إلى خطاب لغوي مشهدي يقوم على بنية مكانية مرتبطة بالزمان والشخصيات المتحاورة ، وهو الرسول الكريم وأبي ذرة الغفاري ، حيث يشكل الحوار بالسؤال والجواب تقنية أساسية لفتح كل سبل تقديم الحجج والبراهين لغايات تعليمية ، يقف أبو ذر موقف السائل الجاهل بالقضية ، فالهدف هنا ليس السؤال وإنما هو تعليم أمور الدين وثقافة بيئتهم.

- **الحديث الثاني : عن أبي عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بوادي الأزرق، فقال :" أي واد هذا " فقالوا : هذا وادي الأزرق . قال : كأني أنظر إلى موسى عليه السلام هابط من الثنية وله جؤار إلى الله بالتلبية ، ثم أتى على ثنية هرشي ، فقال :" أي ثنية هذه؟ قالوا: ثنية هرشي ، قال :"كأني أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام على ناقة حمراء جعدة ، عليه جبّة من صوف ، خطام ناقته خلبة ، وهو يلبي. " [18] أخرجه مسلم**

ينفتح الحديث النبوي الشريف في هذا المثال على آلية استحضار القصص القرآني من خلال استدعاء شخصيات بعض الأنبياء الذين امتثلوا لنداء أبيهم الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام من مثل : موسى، ويونس عليهما السلام . اشتملت الحديث الشريف على ذكر أمكنة جزئية في مكة المكرمة وما جاورها ، وهي كبنية مكانية تشكل في كليتها أهم الأمكنة التي داستها القدم الشريفة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وبالتالي فهي من ناحية الدلالة فضاءات مقدسة لها حكم وعبر عند ذكرها في الحديث الشريف كوادي الأزرق ، " وهو واد خلف أمج إلى مكة بميل " [19] ، وجبل هرش بفتح الهاء وسكون الرّاء : جبل على طريق

[18] طلال بن محمد أو النور ، الاربعون المكية ، ص 9-10.

[19] طلال بن محمد أبو النور ، الأربعون المكية ، جمع وشرح ، جمعية مراكز الأحياء ، مكة المكرمة ، ط1، 2012 ، ص 12.

الشام والمدينة ، قريب من الجُحفة. " [20] تتجاوز هذه الأمكنة الجزئية أبعادها الجغرافية ، عندما يتعلق الأمر بخطاب للرسول الكريم صلوات الله عليه ، فهو " ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول ، أو فعل أو تقرير أو صفة " [21] وهو خطاب نبوي يقوم على النشاط اللغوي للرسول عليه السلام يمارسه وفق ظروف معينة ضمن إطار بثّ زماني ومكاني معينين في سياق المجتمع الإسلامي بغرض تحقيق أهداف سامية للفرد والمجتمع .

فربط التلبية بأماكن معينة كالوادي الأزرق ، وجبل هَرش والآثار ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يذكر شيئا عن حج موسى عليه الصلاة والسلام حتى أتى على وادي الأزرق ، ثم أمسك صلى الله عليه وسلم حتى أتى على ثنيّة هرشى، " فذكر لهم حج يونس عليه الصلاة والسلام بعد أن استحضر أذهانهم بسؤالهم عن المكان فيهما" [22] وبالتالي فالقراءة السيميائية للبنية الفضائية في الحديث النبوي الشريف تقودنا دراسة الفضاء دراسة دلالية وتتجاوز النظرة السطحية لمحتوياته المادية ومعطياته الجغرافية إلى الكشف عن القوانين التي تحكم مجموعة علاماته وتمفصلاته داخل التركيب المكاني الذي يؤسس الفضاء المكاني ككل وكل ما يتعلق بتصرفات الإنسان وإنتاجاته وأفعاله " [23]. يقودنا هذا الطرح إلى ضرورة الاهتمام بالأمكنة الجزئية المكونة لمكة كفضاء دلالي يحمل أبعادا دينية أو ثقافية أو اجتماعية . ولعل ذكر جبال مكة وهضابها ووديانها ، وكل تفاصيل المكان الجغرافي يحولها من مجرد بنيات مكانية إلى علامات سيميائية دالة تحمل شحنات ثقافية واقتصادية تتحقق في شكل أهداف لاحقة ، فالزائر لبيت الله الحرام تدفعه هذه الأحاديث الشريفة لزيارة الأمكنة والآثار التي زارها ووقف عندها الرسول الكريم . فكل ما يحيط بمكة التي " تقع بين درجتي عرض 21- 28 شمالا ، وبين خطي طول 30- 38 درجة شرقا "[24] ضمن منطقة الحجاز ، وهي المنطقة التي فيها سلسلة جبال السُراة مخترقة شبه الجزيرة العربية من شمالها إلى جنوبها ، وحاضرة مكة كما وصفها الجغرافيون القُدامى " بلدة مستطيلة ذات شعاب بواد غير فسيح تكاد تحصره الجبال المحيطة به، فإلى الشرق يمتد جبل أبو قبيس وإلى الغرب من نجد جبل قعيقعان"[25] . والجبلان المذكوران هما المعروفان بالأخشبان. ويذكر مؤلف

[20] م ، ن ، ص 12.
[21] محمد معبد ، نفحات من علوم القرآن ، دار السلام ، القاهرة ، ط ح ، 2005 ، ص 12.
[22] طلال بن محمد أبو النور ، الأربعون المكية ، جمع وشرح ، ص13.
[23] أمال برواق ، سيميولوجيا الفضاء ودلالة التمثلات المعمارية ، رسالة ماجيستير ، جامعة الجزائر ، 2011 /2012، ص 03.
[24] كمال موريس شربل ، الموسوعة الجغرافية ، دار الجيل ، بيروت ، ط1 ، 1998 ، ص 575.
[25] اليعقوبي (أحمد بن أبي إسحاق بن جعفر) ، البلدان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2002 ، ص 153.

كتاب الأربعون المكية :" إن الرحلة للأماكن الفاضلة ، والمواطن المقدسة أمان من الفتن المهلكة والمذاهب المضلة بإذن الله تعالى ، وأمان من عذاب الآخرة ، وتحصيل لسعادة الدنيا والآخرة في مضاعفة الأجور وبركة الأرزاق وكثرة المنافع، لذلك كانت مقصدا للسالكين و موئلا للعابدين منذ النداء الخالد من خليل الرحمان إبراهيم عليه السلام. "[26]

الحديث الثالث : عن أبي عباس رضي الله عنهما ن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمكة :" ما أطيبك من بلد ، وأحبّك إلي ، ولو لا أنّ قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك"– أخرجه الترمذي وصححه بن حبان والحاكم.

يتحقق في هذا الحديث النبوي الشريف مفهوم الوطن والوطنية، فتحدّد علاقة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بالمكان الحميمي مكة ، فيشّع النسيج اللغوي للحديث بدلالات الحب والألفة والحنين والشوق ، وتتراءى صور استحضار مكان الطفولة والأهل والأحبة . فوجود الإنسان وتموقعه في المكان يشكل " مكانا لعبوره أيضا وهو مكان للوعي ، يختزل عبر الوعي بالأمكنة كلها ابتداء من الأمكنة الصغرى والكبرى المألوفة وانتهاء بالمكان المطلق (الكون). "[27]

وبالتالي ارتبطت مكّة بكينونة عيش الرسول صلى الله عليه وسلم ، ووجوده وقد أكّد الناقد الفرنسي غاستون باشلار Gaston Bachlard العلاقة الحميمية بين المكان والإنسان ، " فالبيت القديم بيت الطفولة هو مكان الألفة ومركز تكيّف الخيال ، وعندما يبتعد عنه يظل دائما نستعيد ذكراه، ونسقط على الكثير من مظاهر الحياة المادية ، ذلك الإحساس بالجمالية والأمن اللذين كانا يوفران لنا البيت القديم"[28] . فكانت عبارة الرسول صلى الله عليه وسلم :" ما أطيبك من بلد" تلخّص مكانة مكة في قلبه، فطيب هذه البلدة فلا يأتي فيها إلا ما هو طيّب، " وأنه لأجل طيب هذه البلدة المباركة ، وخبث الشرك ، وحرّم الله تعالى دخول المشرك فيها "[29] . تجتمع مشاعر الطيبة والحب في مكة ، مما يجعلها المكان الأقرب إلى قلب الرسول ، ويسترسل الرسول صلى الله عليه وسلم في أسباب الابتعاد عنها كمكان حميمي : (ولولا أنّ قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك) . تجتمع جملة من الأسباب التي علّقت قلب الرسول صلى الله عليه وسلم منها :

[26] طلال بن محمد أبو النور ، الأربعون المكية ، جمع وشرح ، ص18

[27] صلاح صلاح ، قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر ، دار شرقيات للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 ، 1997 ، ص 15.

[28] غاستون باشلار ، جماليات المكان ، تر : غالب هيلسا ، المؤسسة الجامعية للنشر ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1984 ، ص 30.

[29] طلال بن محمد أبو النور ، الأربعون المكية ، جمع وشرح ، ص30

مكة كبنية مكانية ارتبطت بمولده وصباه وشبابه ورجولته ، وفيها تزوج وأنجب ، وعاش في أسرة كريمة حانية، وهي المكان ذاته أين تعرّض لظلم الكفار وإساءاتهم المتكررة عليه وعلى المسلمين ، فلم تكن هجرته منها بالأمر الهيّن فهو مدفوع بفعل الإساءة (ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك) لقد كان الانتقال و الابتعاد عن الوطن قاسيا على النفس، صعبا عليه . فقد كان من فضائل المهاجرين أنهم ضحوا بأوطانهم في سبيل الله ، فللمهاجرين على الأنصار أفضلية ترك الوطن مما يدل على أن ترك الوطن ليس بالأمر السهل على النفس، وقد مدحهم الله سبحانه على ذيلك ، **فقال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾: الحشر الآية: 8.**

- وقد امتد فراق هذه البنية المكانية حد الشوق والحنين في قلوب المهاجرين ، فجاشت صدورهم بها بين حين وآخره ، قالت عائشة رضي الله عنها : (**لولا الهجرة لسكنت مكة ، إني لم أر السماء بمكان أقرب إلى الأرض منها بمكة ، ولم أر القمر بمكان قط أحسن منه بمكة**)[30] . يعمل هذا الخطاب على تأكيد قطب الاختلاف الحاصل بين مكة وباقي الأمكنة . فزاوية رؤية عائشة لمكة تختلف عن الشخص الذي لم ير مكة من قبل ، فهي موطنها ، وبالتالي اختلف وصفها لسماء مكة ، وقمرها فامتزج الواقعي بالمتخيل ، وصوّرت عائشة مكة بالقرية ، القرية الفاضلة ، " فليس على وجه الأرض بعة ثبت لها من المكان والفضل ما ثبتت لمكة ، ففضلها عظيم والأجر في سكناها جليل، ولهذا كان السلف يوصي بعضهم بعضا بمجاورتها وعدم الزهد فيها . بل بلغ من حبهم لها حد التغني بذكراها، كما حصل من أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فقد كان يطوف بالبيت ، وهو يقول :

يا حبذا مكة من وادي أرضي بها أهلي وعوّادي

فمرّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوضع يده على منكبه ، فقال : " الله أكبر .. الله أكبر " ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : (الله أكبر ... الله أكبر)[31]

4- التقاطبات المكانية في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال كتاب الأربعين المكية .

[30] **المصدر السابق، ص 31 : عن : أخبار مكة (153/2).**

[31] **م ن، ص 33 ، عن أخبار مكة للفاكهي ، ('1/ 303)**

أولا : مكة / المدينة.

عن عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ إبراهيم حرّم مكة ودعا لأهلها، وإنّي حرّمت المدينة كما حرّم إبراهيم مكّة، وإنّي دعوت في صاعها ومدّها بمثلي ما دعا به إبراهيم لأهل مكّة.[32])

ينطلق كتاب الأربعون المكيّة من محور أساسي وهو مكة المكرمة وفضلها ، والسبل المؤدية لتعظيمها ، فوردت صور حضورها متنوّعة تنوّع ، وارتبطت بوصايا الرسول صلى الله عليه وسلم، وكل مكان زاره أو وقف عنده، فوجود الإنسان، وتموقعه في المكان يشكّل " مكانا لعبوره أيضا، وهو مكان للوعي ، يختزل عبر الوعي بالأمكنة كلها ابتداء من الأمكنة الصغرى ، والكبرى المألوفة وانتهاء بالمكان المطلق (الكون)."[33] فتحوّلت مكة بذلك إلى إشعاع مكاني تمتد حدوده إلى العالم بأسره . ولعّل كثرة أسماءها يدل على "عظم المسمى كما في أسماء الله تعالى وأسماء رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا نعلم بلدا أكثر أسماء من مكة والمدينة لكونهما أفضل الأرض، وذلك لكثرة الصفات المقتضية للتسمية."[34] فمن أسمائها:

أ ـ مكّة: وهي أشهر المسميات، والأكثر تداولا، وقد ورد في السنة كثيرا. و" اختلف في معنى هذا الاسم ، فقيل لأنّها تمكّ الجبارين أي تذهب نخوتهم، وقيل لأنّها تجذب الناس إليها، من قولهم: أمتك الفصيل ما في ضرع أمه إذا لم يبق فيه شيئا، وقيل غير ذلك، وهو اسم لجميع البلدة."[35]

ب. بكّة: في القرآن الكريم : "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ" [آل عمران:96-97]. ، فالتسمية ترتبط بأنّها " تبك أعناق الجبابرة أي تدقها."[36]

ج ـ أم القرى: **ورد هذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ الآية:7**، فهي أعظم القرى شأنا.

ومن التسميات التي لا يسعنا ذكرها كاملة في هذا المقام ما يلي: البلد، البلدة، البلد الأمين، المسجد الحرام، القرية، معاد، الحرم.

---

[32]. رواه مسلم،(1360)

[33]. **صالح صلاح، قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1997، ص15.**

[34]. محمد بن عبد الله بن عايض بن عوض الغبان، فضائل مكة، ص23، عن تهذيب الأسماء واللغات3 /157)

[35]. م ن ، ص24.

[36]. م ن، ص24.

دـ المدينة (يثرب الاستمرارية): ترتبط مكة بالمدينة ارتباطا تاريخيا وروحيا، "فعلى بعد حوالي ثلاثمائة ميل في شمال مكّة تقع يثرب، وهي من الناحية الجغرافية" واحة خصيبة التربة غزيرة المياه محصورة بين لابتين بركانيتين تعرفان بالحرتين حرة واقم في الشرق، وحرة الوبرة في الغرب. وتكتنف الوديان الحرتين من الشرق ومن الغرب، وتحيط بالمدينة من جهاتها الأربع. ويقع جبل عير في الجنوب الغربي من يثرب."[37] كما عرفت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم باسم المدينة من كلمة" مدينتا Medinta التي تعني الحمى، أي مدينة على رأي المستشرقين الذين يرون أنّ اليهود المتأثرين بالثقافة الأرامية أو بعض المتهودة من بني إرم الذين نزلوا يثرب هم الذين دعوها مدينتا ومنها جاءت المدينة. أما كلمة مدينة على أنّها اختصار من مدينة الرسول ، فيرون أنه رأي متأخر قال به العلماء."[38] تتعالق البنيتان المكانيتان مكة والمدينة ببعضهما البعض من حيث تقاطبات مكانية متنوّعة يمكن حصرها في :

ـ مكّة بين الألفة والمعاداة: تشكل مكّة مكان الألفة للرسول صلى الله عليه وسلم. والمكان الأليف هو المكان المقترن بالدفء والشعور، وعندما اقترن الرسول الكريم بالرسالة والتكليف السماوي هاجمه من لم يرغب في هذا الدين، وكانت المعاملة قاسية وشديدة الوقع، ممّا دفعه للهجرة إلى المدينة.، وقد هاجرت فئة قليلة قبله إلى يثرب تاركة ديارها، " " فأقفلت بهجرتها دور كثيرة من دور مكة ، وتألم كثير من المكيين لقفل هذه الدور وتحسروا عليها."[39] فتحوّل المكان من الألفة إلى المعاداة مما يقتضي ضرورة تركه.

ثانيا ـ المدينة بين الألفة والاغتراب.

لم يتعوّد المهاجرون إلى المدينة على جوّها وبيئتها المختلفة عن مكّة، وبقي الحنين في نفوسهم إلى مكة وديارهم،" فلم يستقبلوا حياتهم الجديدة، أو لم تستقبلهم حياتهم الجديدة بالترحاب، فقد كان جوّ المدينة وبيئا رطبا، فأصيب كثير من المهاجرين بالحمّى، ثم إنّهم كانوا محتاجين في هذا العهد الجديد إلى أن يدبروا أمر معاشهم بطريقة ما، بعد أن تخلوا عم أموالهم في مكّة وهاجروا فارين بدينهم وأنفسهم هذه الفئة القليلة التي يعمل فيها الحنين والحمّى، والتي تدبر أمر معاشها على نحو ضئيل استطاعت أن تبلغ في يثرب ما لم تبلغه في مكة، ونالت توفيقا لم تنل مثله من قبل."[40] في المدينة كحيز جغرافي ضيّق بدأ النبي صلى الله عليه وسلم تشكيل المدينة كفضاء إسلامي جديد مكوّنا الأمة الإسلامية يدخلها الناس بصرف النظر

---

[37]. أحمد ابراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص311.

[38]. م ن، ص315.

[39]. م ن، ص403.

[40]. م ن، ص304، عن ابن هشام 29/2، ابن كثير 170،171/3.

عن قبائلهم وأجناسهم، وبالتالي تكوّنت الشخصية السياسية للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى جانب شخصيته الدينية.

ثالثاـ الصراع المباشر بين مكة والمدينة.

مثلت الغزوات التاريخية التي قادها الرسول صلى الله عليه وسلم مع صحابته والمسلمين نقطة الاحتكاك المباشر بين المدينتين مكّة والمدينة، " فحين أنشأ النبي دولته في يثرب، كان يدرك أنّ عدوّه الأكبر هي قريش، وأنّها سوف لا تتأخر عن مناوأته، وسوف لا تصبر طويلا على هذه الدولة التي نشأت على طريق تجارتها إلى الشام، ولقد قدرت قريش مقدار الخطر الذي يتهددها من وراء هجرة المسلمين إلى يثرب، ومبايعة أهل المدينة للنبي، واستشعرت ما سيترتب على هذا الوضع من نتائج ستجر إلى الحرب بين البلدين بمجرّد أن علمت ببيعة العقبة الكبرى.."[41] وحدثت المواجهة في عدّة غزوات أولها غزوة بدر الشهيرة في السنة الثانية للهجرة، وموقعة أحد في السنة الثالثة للهجرة ، وغزوة الخندق وغيرها من الغزوات.

رابعاـ فتح مكة والعودة إلى الديار.

شكّلت عودة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكّة عند فتحها حدثا جللا، تقف أمامه العقول المتبصرة وقفة تأمل وإعجاب بشخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فقد كان متزنا حليما عند دخول مكة لم يشأ أ ن تراق قطرة دماء واحدة، فالمكان مقدّس بالنسبة إليه. فكانت حلوله سلسة مرنة ، حيث" تحرّك الجيش الكبير في عدّته التي لم تشهدها الجزيرة من من قبل عدّة وسلاحا ونظاما وحسن طاعة، يملأ نفوس رجاله الإيمان بأنّ لا غالب لهم من دون الله، وسار محمد على رأس هذا الجيش وكل تفكيره أن يدخل البلد الحرام من غير أن يريق قطرة دم واحدة."[42] وبفتح مكّة تحوّلت الصورة الأولى للمكان من معقل للكفّار و المنافقين إلى عاصمة دينية لم ترق فيها قطرة دماء وحدها. وقضى على الوثنية في معقلها الأكبر قضاء رسميا، فتحوّلت مكّة من الظلام إلى النور، وتعدى نورها كامل شبه الجزيرة العربية، و" بفتح مكّة خرجت الدولة الإسلامية من نطاق المدينة ـ الدولة اليثربية ـ إلى نظام الدول الكبيرة المتّحدة. فقد أصبحت الدولة الإسلامية العربية تتكوّن من المدينة ومكّة والطائف وما بينهما وحولها من قبائل. وأصبح هدف النبي في توحيد العرب أمرا محقّقا."[43] لقد عاد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى مكّة مسقط رأسه وفضاء

[41]. م ن، ص443.
[42] م ن، ص545.
[43]. م ن، ص552.

طفولته وشبابه. عاد منتصرا معلنا للتغيير على جميع الأصعدة.

وكخلاصة لما سبق يمكن أن نستنتج النتائج الآتية:

ـ يشكل الحديث النبوي الشريف مجالا خصبا لتطبيق آليات المناهج النقدية المعاصرة.

ـ تسمح آليات المناهج النقدية المعاصرة، وخاصة المنهجين النبوي والسيميائي بالبحث عن المعاني الظاهرة والمضمرة في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

ـ شكّل المكان حضورا مميّزا في كتاب الأربعين المكيّة.

ـ تعد مكّة بنية مكانية تحمل العديد من الجزئيات والتفاصيل التي كان لها أُثرها في الدعوة الإسلامية.

ـ خضع المكان من خلال محور مكّة/ المدينة إلى العديد من التجاذبات والصراعات والتقاطبات، فانتقل من الألفة إلى المعاداة، ومن الوطن إلى الاغتراب والحنين ثم العودة والتأسيس إلى مرحلة أخرى، المؤكد فيها أنّها تختلف اختلافا جذريا عن المرحلة الأولى، فكان الانتقال من مكّة الظلام عهد الكفّار إلى مكّة النور بفتحها على يد الرسول صلى الله عليه وسلم.

قائمة المصادر والمراجع:

أ. المصادر.

1. ـ طلال بن محمد أبو النور ، الأربعون المكية ، أربعون حديثا في فضائل وأحكام البلد الأمين ، جمعية مراكز الأحيائ بمكة المكرمة ، مكة المكرمة ، ط5 ، 1430.
2. طلال بن محمد أبو النور ، الأربعون المكية ، جمع وشرح ، جمعية مراكز الأحباء ، مكة المكرمة ، ط 1، 2012 .

ب ـ المراجع.

1. . خالد حسين حسين، شعرية المكان في الرواية الجديدة، مؤسسة اليمامة، الرياض،ط1، 2000.

2. . حسن مجيد العبيدي، نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد،ط1، 1987.

3. . حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1991،1.

4. . صالح صلاح، قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1997.
5. . عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج1، ط1، 1984.
6. . غاستون باشلار، جماليات المكان، ت: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية لدار النش والتوزيع، بيروت، ط3، 1987.
7. . محمد بن عبد الله بن عايض بن عوض الغبان، فضائل مكة، ص23، عن تهذيب الأسماء واللغات3 /157).
8. . ياسين النصير، إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، ط1، 1986.
9. أحمد ابراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، دار الفكر العربي ، االقاهرة ، مصر ، 1985.
10. أمال برواق ، سيميولوجيا الفضاء ودلالة التمثلات المعمارية ، رسالة ماجيستير ، جامعة الجزائر ، 2011 /2012.
11. تقي الدين محمد بن احمد الحسني الفاسي المكي ، العقد الثمين ، تحقيق محمد حامد الفيقي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان، ط ح ، 1986.
12. جمعية مراكز الاحياء ، مشروع تعظيم البلد الحرام ، من الموقع الالكتروني : http://makkah.org.s.
13. صلاح صلاح ، قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر ، دار شرقيات للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 ، 1997 .
14. كمال موريس شربل ، الموسوعة الجغرافية ، دار الجيل ، بيروت ، ط1 ، 1998 .
15. محمد بن عبد الله بن عايض بن عوض الغبان، فضائل مكة الواردة في السنة جمعا ودراسة ، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ، المملكة السعودية ، ج1 ، ط1 ، 1421.
16. محمد معبد ، نفحات من علوم القرآن ، دار السلام ، القاهرة ، ط ح ، 2005 .

17. اليعقوبي (أحمد بن أبي إسحاق بن جعفر) ، البلدان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2002 .